المحاضرة 5
نموذج عن المقاومة في المغرب العربي.
1-مقاومة الأمير عبد القادر 1832-1847.

لا يسعنا المقام للالمام بمقاومة الأمير عبد القادر في هذه المحاضرة. ولذلك سنركز حديثنا حول أهم المعالم الكبرى في مقاومته، معالم يمكن معالجتها من خلال العناصر التاية:

-الوضع في الغرب الجزائري قبل مبايعة الأمير عبد القادر: عرف الغرب الجزائري خلال هذه الفترة أحداث عدة يمكن ذكر أبرزها:

-استيلاء الفرنسيين على مدينة وهران ونفي الباي حسن، وبالتالي سقوط نظام الحكم العثماني في بايلك الغرب كما سقط في دار السلطان-الجزائر-.

-مقاومة الشيخ محيي الدين للفرنسيين.

-تدخل الباي التونسي في اقليم وهران بالتنسيق مع الفرنسيين، من خلال عقد صفقة بيع وهران للباي التونسي!؟.

-تدخل السلطان المغربي في بايلك الغرب الجزائري.

-مبايعة الأمير عبد القادر 1832-1833:

كما هو معروف فإن مبايعة الأمير جرت عبر مرحلتين: البيعة الأولى –بيعة الخاصة- 1832 وبيعة العامة 1833، ولكل منهما نص قائم بذاته يوضح لنا القصد من وراء البيعة. وهذا شيء بات متعارف عليه، لكن الا شكال المطروح هو: لماذا طرح الأمير عبد القادر مسألة البيعة على الرعية –سكان المنطقة-؟ وما هي مرتكزات الأمير في ذلك؟

إن هذه المسألة تعكس المستوى الفكري الجزائري في ذلك الوقت، فا لأمير يعي جيدا مدلول البيعة في الشرع الاسلامي، وأبعادها الدينية و الفكرية، فالبيعة هي بمثابة عقد شرعي كعقد الزواج، الذي لا يتم التحلل منه إلا بالطلاق، وعليه فالبيعة أو المبايعة هي رباط متين بين طرفين لا يمكن التحلل منها؛ وعليه فمحور البيعة هنا هو : السمع والطاعة والجهاد في سبيل الله. فالأمير أراد أن يؤسس لرباط الجهاد بتأسيس قوي ومتين، لن ينته بموت الأمير أو أسره...الخ. ونستشف من هذا مدى اقتداء الأمير بسيد الخلق محمد صلى الله عليه وسلم، في سن ركن البيعة: بيعة العقبة الأولى؛ بيعة العقبة الثانية كما هو معروف.

أما المسألة الثانية فهي لماذا لُقب أو تلقّب بالأمير؟ كان يدرك جيدا أنه محاط بسلطانين: السلطان العثماني، السلطان المغربي، وعليه فهو أراد التفرد والتميز في أخذ لقب أعلى من السلطان وهو لقب الأمير. وهذا تمهيدا لتأسيس دولته الفتية، التي ستكون مستقلة عن السلطان العثماني كما ستقطع الطريق أمام السلطان المغربي الذي كان يتطلع لضم منطقة الغرب

الجزائري، وعليه فوجود سلطة شرعية في المنطقة ستمنعه من ذلك.
–بغض النظر عن الاحتلال الفرنسي-

-سن فكرة الدولة:

إن طرح هذه الفكرة لها مدلول كبير، فهو أراد التأسيس للوطنية الجزائرية التي غيبتها منظومة الحكم العثماني لعدة قرون، والانفراد بتأسيس دولة جزائرية غير تابعة للسلطان العثماني ، وكسلطة سياسية مجاورة للسلطان المغربي. هذا من جهة. ومن جهة أخرى فالأمير كان يُدرك جيدا حجم الدولة الفرنسية التي غزت بلاده، وعليه فلا يمكن مجابهة هذه الدولة إلا بدولة مثلها. فالحرب لن تكون بالقبيلة ولا بالعرش، ولا بـ الحمية ...الخ.

إن الشروع في التأسيس لهاتين الفكرتين في ظل تنظيم دقيق ومحكم يكون قد أفرز على تحقيق انتصارات عسكرية كبيرة بين الفينة والأ خرى، فخلال المدة الممتدة من 1833-1837 قد كبّد العدو الفرنسي خسائر كبيرة؛ [معركة المقطع 1835، معركة واد السيق، 1836،]أفضت إلى عقد معاهدتين معه: الأولى بقيادة الجنرال دي ميشال سنة 1834، والثانية بقيادة الجنرال بيجو في سنة 1837.

إستغل الأمير عبد القادر هذه المعاهدة -التي يراها في طبيعة الأمر مجرد هدنة-في التفرغ لتأسيس أركان دولته، دولة امتدت في رقعة جغرافية معتبرة، متكاملة الأركان، ذات سيادة، ففي ظرف زمني قصير أسس لنظام حكم جزائري لم ينجح نظام الحكم العثماني طيلة ثلاثة قرون من تأسيسه، غير أن العدو الفرنسي لم يعط فرصة للأمير للاستفادة أكثر من المعاهدة، فراح يضرب الأمير عبد القادر بالشيخ أحمد التجاني بعين ماضي، كما تعمد نقض معاهدة التافنا وفرض على الأمير العودة للكفاح المسلح في نوفمبر 1839.

منذ مطلع 1840 راهن العدو الفرنسي على عدة معطيات: القوة العسكرية من حيث العدة، العتاد، الوسائل الحربية: حرب الابادة، الأرض المحروقة...مما أفضى في الأخير إلى القضاء على البنية التحتية لدولة الأ مير بالتعاون أيضا مع الطابور الخامس الذي سبق تشكيله. فسقطت مقاطعات الأمير الواحدة تلو الأخرى، مما دفعه إلى تأسيس الزمالة العاصمة المتنقلة التي كانت تضم 60000 نسمة، لكن عيون العدو ومخبريه يكونوا قد تمكنوا من القضاء عليها بعد جهد كبير ومطاردة استمرت لأكثر من سنتين، فكان سقوطها في سنة 1843، وكعادته لم يتوان في تشكيل ما سمي بالدائرة واللجوء بمن بقي معه من المقاومين إلى المغرب الأقصى.

أفرز لجوء الأمير إلى المغرب الأقصى تسارع في الأحداث، حيث

عارضت فرنسا هذا اللجوء، وفرضت على سلطان المغرب أن يقوم بطرده أو يتدخل الفرنسيون لالقاء القبض على الأمير بأنفسهم. لكن تسوّف السلطان وعدم قدرته على تنفيذ هذا المطلب دفع بالفرنسيين إلى التوغل في المغرب الشرقي، توغل أفضى إلى معركة واد ايسلي سنة 1844، معركة فرضت بموجبها فرنسا شروطها على السلطان من خلال معاهدة طنجة سنة 1844 واتفاقية لالة مغنية سنة 1845: [طرد الأمير من المغرب أو القاء القبض عليه من طرف السلطان + رسم خط الحدود بين الجزائر والمغرب الممتد من البحر المتوسط إلى ثنية الساسي حتى يسهل مراقبة تحركات الأمير ومنعه من العودة إلى الجزائر].

-عودة الأمير عبد القادر إلى الجزائر :

لم تثن الإجراءات الفرنسية من عزيمة الأمير ومنعه من العودة إلى الجزائر لمواصلة الكفاح المسلح، ففي خطوة جريئة وقوية تمكن من تحقيق انتصار عسكري هائل على الجيش الفرنسي في معركة سيدي ابراهيم في سبتمبر 1845، معركة تكبد فيها العدو خسائر بشرية فادحة. ثم توغل مقداما شجاعا نحو خليفته ابن سالم في برج حمزة بالبويرة، ومن هناك خطّط لتطويق العاصمة الجزائر ، لكن عيون العدو الفرنسي والمخبرين تفطنوا له، فأعلنت فرنسا حالة طوارئ كبرى، تمثلت في تشكيل 15 طابور عسكري غايتها مطاردة الأمير والقضاء عليه، مما فرض عليه الانسحاب نحو جبال العمور وأولاد نايل، لكن قوة العدو الفرنسي أجبرته على التوغل أكثر في الجنوب الغربي الجزائري ليحط رحاله بقبائل أولاد سيدي الشيخ البيض.

لم يعمر وجوده بينهم، إذ سرعان ما عبر المغرب عبر منطقة فقيق ليلتحق بدائرته في المغرب من جديد، دائرة وجدها تئن وتتألم من تضييق المخزن المغربي ومن تحرشات الفرنسيين القاضية بضرب السلطان بالأمر، ومن بين المستجدات: توظيف الفرنسيين لورقة العرش المغربي المهدد من طرف الأمير وهي بذرة نتنة صنعتها المخابرات الفرنسية لتنمو وتكبر في عقل السلطان الذي بات يرعد ويزبد حسب ما ذكره –دي شاستو-كونه رأى في الأمير عدو لدود له يجب طرده من المغرب أو القاء القبض عليه.

وبين هذا وذاك استعرت نار الفتنة بين الاخوة الأشقاء، فراح ينفخ فيها العدو الفرنسي لتشتعل وتكبر شيئا فشيئا، نار أفضت إلى مواجهات دامية في معارك هامشية: معركة الحشم وبنو عامر، معركة قلعية...الخ، ولتطويق الأمير أكثر جهّز المخزن 50000 متطوع وزجّ بهم في المعركة ضد الأمير عبد القادر هذا من جهة الغرب، في الوقت الذي جهز العدو الفرنسي 100 ألف جندي من جهة الشرق، فبدأت الحلقة تضيق على الأمير شيئا فشيئا، حلقة وجد لها مخرجا من خلال عهد الآمان الذي وقّعه مع

الجنرال لا مورسيير، في موفى شهر ديسمبر 1847.

إن ما نختتم به فصول هاته المقاومة هو الطعنة التي تلقاها الأمير من السلطان المغربي، الذي صدّق الأكاذيب الفرنسية، فانطلت عليه حيلتهم، فراح يحارب في مجاهد لجأ إليه لحماية ظهره من الأعداء، فولاه الدبر هذا من جهة. ومن جهة أخرى، الخديعة التي تعرض لها الأمير عبد القادر من الجانب الفرنسي، الذي أعطى عهده وميثاقه للأمير في الإلتزام بشروط عقد الآمان الموقعة في وثيقة رسمية بين الأمير ولا مورسيير، فبدلا من تنفيذ شروط العقد قام العدو الفرنسي بأسر الأمير !!!.تعد هذه العملية وصمة عار في جبين فرنسا، تضاف إلى عارها السالف واللاحق في أرض الشهداء.